"الحجـــاب"

من قيمة أخلاقية إلى "إكسسوار اجتماعي"

قراءة في البنية والدلالات

بقلـــم

د. مصطفـــى ســـوادي جاســـم

باحث في مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

مقدمة

يُعدّ الحجاب من أكثر الموضوعات حضورًا في الوعي الديني والاجتماعي والثقافي في المجتمعات الإسلامية، بل أصبح في العصر الحديث قضية تتجاوز حدود اللباس لتلامس مفاهيم الهوية والحرية والأخلاق والانتماء الحضاري. والحجاب لم يكن ظاهرة إسلامية خالصة، بل يمتد بجذوره إلى حضارات قديمة وبيئات اجتماعية متنوّعة، ثم جاء الإسلام ليمنحه إطارًا تشريعيًا وأخلاقيًا وروحيًا مختلفًا عن كثير من التصورات السابقة.

ولأنّ الحجاب يرتبط بالإنسان قبل أن يرتبط بالقماش، فإن قراءته لا ينبغي أن تبقى محصورة في الجانب الفقهي فقط، بل تحتاج إلى مقاربة تاريخية وقرآنية وروحية واجتماعية تكشف أبعاده المتعددة، وكيف تحوّل من ممارسة اجتماعية إلى رمز ثقافي وديني مثير للنقاش والتفاعل.

اولًا: الحجاب في التاريخ والعصر الجاهلي

قبل الإسلام، عرفت الحضارات القديمة أشكالًا متعددة من الحجاب أو ستر الرأس والجسد، إلا أنّ مفهومه لم يكن ثابتًا في جميع البيئات، بل ارتبط بطبيعة البناء الاجتماعي والثقافي لكل حضارة. ففي الحضارات الآشورية والفارسية والبيزنطية، كان الحجاب في كثير من الأحيان رمزًا طبقيًا واجتماعيًا، إذ خُصّت به النساء الحرائر وذوات المكانة الرفيعة، بينما مُنعت الإماء والجواري أحيانًا من ارتدائه كي يبقى الحجاب علامة تُميز المرأة ذات النسب أو الطبقة الاجتماعية العليا عن غيرها. وهذا يكشف أن الحجاب في تلك البيئات لم يكن مجرد ممارسة أخلاقية أو دينية، بل أداة اجتماعية لتحديد المكانة والهوية داخل المجتمع.

وقد أشارت بعض الدراسات التاريخية إلى أنّ النساء في المجتمعات الشرقية القديمة كنّ يستخدمن أغطية للرأس وملابس فضفاضة تختلف في ألوانها وهيئتها بحسب الطبقة والانتماء الاجتماعي، فكانت المرأة من الطبقات العليا ترتدي لباسًا أكثر سترًا وزينةً، في حين تُترك المرأة العاملة أو الجارية بملابس أقل تغطية. وهكذا أصبح الحجاب نوعًا من "التمييز البصري" الذي يسمح للمجتمع بمعرفة موقع المرأة الاجتماعي بمجرد النظر إليها.

أما في الجزيرة العربية قبل الإسلام، فلم يكن الحجاب بمعناه الإسلامي المعروف مطبقًا بصورة عامة وموحدة، بل كان يخضع للعادات القبلية والبيئية. فقد عرفت بعض نساء العرب ستر الرأس بالخمار، خاصة في البيئات الحضرية أو بين نساء القبائل ذات المكانة، لكن هذا الستر لم يكن دائمًا شاملاً أو مضبوطًا بقواعد أخلاقية وتشريعية واضحة كما جاء لاحقًا في الإسلام. وكانت بعض النساء تُلقي الخمار خلف الرأس فيظهر العنق والصدر والنحر، كما كانت مظاهر الزينة والتبرج شائعة في الأسواق والمواسم والمجالس العامة.

ولم تكن هيئة اللباس في الجاهلية مجرد مظهر جمالي، بل كانت تحمل دلالات اجتماعية، إذ إن نوع الثوب، وطريقة وضع الخمار، وكشف بعض مواضع الزينة، كانت تعكس أحيانًا وضع المرأة القبلي أو الاقتصادي أو حتى حالتها الاجتماعية. فالمرأة الحرة قد تتميز عن الأمة في نوع اللباس والزينة، والمرأة ذات النسب الرفيع قد تُعرف بلباسها قبل اسمها، ما جعل المظهر الخارجي وسيلةً لإبراز الهوية الاجتماعية داخل المجتمع العربي القديم.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

وقد أشار القرآن الكريم إلى جانب من هذه الثقافة الجاهلية بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ سورة الأحزاب 33، ويكشف هذا التعبير القرآني أنّ المجتمع الجاهلي كان يعرف أنماطًا من إظهار الزينة والمبالغة في إبراز الجسد والحضور الشكلي للمرأة، بحيث أصبحت المرأة في بعض السياقات تُقاس بمقدار ما تُظهره من زينة وجاذبية. فجاء الإسلام ليعيد صياغة هذه العلاقة، لا من خلال إلغاء وجود المرأة أو عزلها عن المجتمع، وإنما عبر إعادة بناء مفهوم الكرامة الإنسانية والحياء والاحترام المتبادل.

كما أن الإسلام لم يُرد للحجاب أن يكون مجرد علامة طبقية كما كان في بعض الحضارات السابقة، بل أراد له أن يتحول إلى قيمة أخلاقية مرتبطة بالعفة والوقار. ولهذا نلاحظ أن الخطاب القرآني لم يقتصر على المرأة وحدها، بل بدأ أولًا بتربية الرجل على غضّ البصر واحترام الآخر، في محاولة لبناء مجتمع يقوم على التوازن الأخلاقي لا على النظرة الاستهلاكية للجسد.

ومن هنا يمكن القول إن الحجاب انتقل مع الإسلام من كونه وسيلة للتمييز الطبقي والاجتماعي إلى كونه جزءًا من منظومة أخلاقية وروحية تهدف إلى حماية إنسانية المرأة والرجل معًا، وإعادة تعريف العلاقة بين المظهر والقيمة الحقيقية للإنسان.

ثانيًا: مفهوم الحجاب في القرآن الكريم

عند قراءة الآيات القرآنية المتعلقة بالحجاب، نجد أنّ القرآن تناول الموضوع بصورة تشريعية مباشرة وواضحة، من خلال تحديد طبيعة اللباس وحدود الزينة وكيفية تعامل المرأة مع حضورها الخارجي في المجتمع. وقد وردت الإشارات الأساسية للحجاب في سورتي النور والأحزاب، إضافة إلى آيات أخرى تتعلق بستر الزينة وآداب العلاقة بين الرجال والنساء.

ومن أوضح الآيات في هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ سورة النور:31 وتُعدّ هذه الآية من أهم النصوص القرآنية التي تناولت الحجاب بصورة مباشرة، إذ تضمنت عدة أحكام تتعلق بستر الزينة وهيئة اللباس. والخُمُر جمع خمار، وهو الغطاء الذي كانت المرأة تضعه على رأسها، لكن نساء العرب قبل الإسلام كنّ يُلقين أطرافه خلف الظهر، فيبقى العنق وأعلى الصدر ظاهرين، فجاء الأمر القرآني بأن يُضرب بالخمار على الجيوب، أي على فتحة الصدر والنحر، ليتحقق الستر بصورة أوضح.

كما تضمنت الآية النهي عن إبداء الزينة إلا في حدود معينة، وهو ما فسّره الفقهاء بوجوب ستر مواضع الزينة وعدم إظهار ما يلفت النظر من مفاتن الجسد أمام غير المحارم. وقد أصبحت هذه الآية أصلًا فقهيًا في بيان حدود الحجاب الشرعي وكيفية تغطية المرأة لجسدها.

أما الآية الثانية الأساس في موضوع الحجاب فهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ سورة الأحزاب :59، وقد نزلت هذه الآية لتأمر النساء بإدناء الجلابيب عليهن، والجلباب هو الثوب الخارجي الواسع الذي يغطي الجسد فوق الملابس العادية. ومعنى "يُدنين" أي يُرخين ويُسدلن هذا اللباس بحيث يحقق الستر والاحتشام.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

وتكشف الآية أن للحجاب وظيفة اجتماعية واضحة، تتمثل في تمييز المرأة بالعفة والوقار وصيانة شخصيتها من الأذى أو التعرض غير اللائق. وقد فهم المفسرون من الآية أنّ الحجاب لم يكن مجرد عادة اجتماعية، بل توجيهًا تشريعيًا يرسم الهيئة العامة للباس المرأة في المجتمع الإسلامي.

ومن الآيات التي ترتبط بالحجاب أيضًا قوله تعالى في خطاب نساء النبي: ﴿**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ سورة الأحزاب:53 وقد وردت كلمة "حجاب" هنا بمعنى الساتر أو الحاجز المادي، أي وجود فاصل بين الرجال ونساء النبي أثناء الحديث. ورغم أن الآية خُصّت ابتداءً ببيوت النبي، إلا أنها أسست لمفهوم الحشمة وتنظيم العلاقة بين الجنسين داخل المجتمع الإسلامي.

كما وردت آيات أخرى تتصل بستر الزينة وعدم إظهار تفاصيل الجسد، منها قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ**﴾ سورة النور:31 وقوله تعالى: ﴿**وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ**﴾ سورة النور:60 وهذه الآية تدل على أن الأصل هو وجود الثياب الساترة، ثم استثنت النساء المتقدمات في السن بشروط محددة، أهمها عدم التبرج وإظهار الزينة.

ومن خلال مجموع هذه الآيات، يتبين أن القرآن الكريم تناول الحجاب بصورة مباشرة من خلال:

- الأمر بستر الزينة.
- تغطية الصدر والنحر بالخمار.
- ارتداء الجلباب الخارجي الساتر.
- النهي عن التبرج وإظهار المفاتن.
- تنظيم العلاقة البصرية والاجتماعية بين الرجال والنساء.

وبذلك أصبح الحجاب في القرآن جزءًا من التشريع المتعلق بالمظهر العام والاحتشام، لا مجرد مفهوم رمزي أو معنوي، بل هيئة ظاهرة تضبط شكل اللباس وحدود إظهار الزينة داخل المجتمع الإسلامي.

ثالثًا: الحجاب من الناحية الشرعية والفقهية

يُعدّ الحجاب في الفقه الإسلامي من الأحكام الشرعية المرتبطة بباب العفّة والستر وآداب العلاقة الاجتماعية، وقد اتفقت المذاهب الإسلامية الكبرى - مع اختلافاتها التفصيلية - على أصل وجوب ستر المرأة لجسدها أمام الأجانب غير المحارم ضمن حدود وضوابط معينة استنادًا إلى النصوص القرآنية والروايات النبوية.

وقد تناول الفقهاء الحجاب بوصفه حكمًا تشريعيًا له شروط وحدود وصفات محددة، وليس مجرد عادة اجتماعية أو تقليد ثقافي متوارث. **ولهذا نجد أن كتب الفقه الإسلامي أفردت أبوابًا مستقلة لبيان:**

- حدود العورة.
- أحكام النظر.
- صفات اللباس الشرعي.
- زينة المرأة.
- الاختلاط وآداب التعامل بين الجنسين.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

1. حدود الحجاب الشرعي

يرى جمهور الفقهاء أنّ الحجاب الشرعي يقتضي ستر المرأة لجميع بدنها أمام الرجال الأجانب، مع وجود اختلافات فقهية في بعض الجزئيات، ولا سيما ما يتعلق بالوجه والكفين، إذ ذهب بعض العلماء إلى جواز كشفهما إذا أُمنت الفتنة ولم يكن في ذلك إثارة أو تبرج، بينما رأى آخرون وجوب سترهما أيضًا احتياطًا وتحقيقًا لكمال الستر. إلا أنّ المدارس الفقهية اتفقت عمومًا على وجوب ستر الشعر والعنق والصدر والذراعين والساقين وسائر مواضع الجسد التي تُعدّ من الزينة أو مما يلفت النظر. وقد استند الفقهاء في ذلك إلى النصوص القرآنية المباشرة، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ**﴾ سورة النور:31، حيث فهموا من الآية أنّ الخمار لا يقتصر على تغطية الرأس فقط، بل يمتد ليستر الصدر والنحر ومواضع الزينة الظاهرة، وكذلك قوله تعالى: ﴿**يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ**﴾ سورة الأحزاب :59، والجلباب هو الثوب الخارجي الساتر الذي يغطي الجسد بصورة تحقق الاحتشام والوقار. ومن خلال هاتين الآيتين، قرر الفقه الإسلامي أنّ المقصود بالحجاب ليس مجرد وجود قطعة قماش توضع على الرأس أو الجسد بصورة شكلية، بل تحقيق الستر الحقيقي الذي يمنع إظهار تفاصيل البدن والزينة ويحقق الغاية الشرعية من العفة وصيانة المرأة داخل المجتمع.

2. شروط الحجاب الشرعي في الفقه الإسلامي

لم يكتفِ الفقه الإسلامي بذكر أصل الحجاب، بل وضع له شروطًا وصفات تضمن تحقق الغاية من الستر، **ومن أهم هذه الشروط:**

- **أن يكون ساترًا للجسد:** أي يغطي المواضع الواجب سترها بصورة كاملة، فلا يكون قصيرًا أو يكشف أجزاءً من البدن أثناء الحركة أو الجلوس.
- **ألا يكون شفافًا:** فالثوب الرقيق الذي يُظهر لون البشرة أو تفاصيل الجسد لا يُعدّ ساترًا في الرؤية الفقهية، وقد ورد في الحديث النبوي وصف بعض النساء بأنهن: "كاسيات عاريات" أي يلبسن لباسًا لا يحقق حقيقة الستر.
- **ألا يكون ضيقًا:** إذ يرى الفقهاء أن الحجاب لا يقتصر على تغطية الجلد فقط، بل ينبغي ألا يصف حجم الجسد وتفاصيله بصورة مثيرة للنظر.
- **ألا يكون لباس زينة بحد ذاته:** أي لا يتحول الحجاب نفسه إلى وسيلة ملفتة للأنظار من خلال المبالغة في الألوان أو الزخارف أو أساليب العرض التي تناقض مقصود الاحتشام.
- **ألا يكون مشابهًا للباس الرجال:** استنادًا إلى الروايات التي نهت عن التشبه بين الجنسين في اللباس والهيئة العامة.
- **ألا يكون لباس شهرة:** ويقصد به اللباس الذي يُرتدى بقصد التفاخر أو لفت الأنظار بصورة استثنائية داخل المجتمع.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

3. الحجاب وعلاقته بالعفة الاجتماعية

ينظر الفقه الإسلامي إلى الحجاب بوصفه جزءًا من منظومة متكاملة تهدف إلى حفظ العفة وتنظيم العلاقة الاجتماعية داخل المجتمع، ولذلك لم تُطرح أحكام الحجاب بمعزل عن بقية الأحكام المرتبطة بالسلوك العام، كغضّ البصر، وتحريم الخلوة المحرمة، وآداب الحديث، والنهي عن التبرج، وتنظيم حدود العلاقة بين الرجال والنساء. ومن هذا المنطلق، يرى الفقهاء أنّ الحجاب لا يقتصر على تغطية الجسد أو ارتداء لباس معين فحسب، بل يمتد ليشمل طريقة الحضور الاجتماعي وأسلوب التعامل والكلام والحركة، لأن مفهوم الاحتشام في الرؤية الشرعية يرتبط بالسلوك بقدر ارتباطه بالمظهر. وقد استدل العلماء على ذلك بقوله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**﴾ سورة الأحزاب:32، حيث تُظهر الآية أن الإسلام لم يركز على شكل اللباس وحده، بل اهتم أيضًا بطريقة الخطاب ونبرة الكلام وحدود التفاعل الاجتماعي، بما يحفظ الاحترام المتبادل ويمنع تحويل العلاقة بين الجنسين إلى مساحة للإثارة أو الاستغلال، وبذلك يصبح الحجاب في الفقه الإسلامي جزءًا من بناء أخلاقي واجتماعي متكامل يقوم على العفة والحياء وصيانة الكرامة الإنسانية.

4. الحجاب بين الظاهر والجوهر في الرؤية الشرعية

ينظر الفقه الإسلامي إلى الحجاب بوصفه عنصرًا أساسيًا ضمن منظومة أخلاقية واجتماعية متكاملة تهدف إلى حفظ العفة وصيانة المجتمع وتنظيم العلاقة بين الرجال والنساء على أساس الاحترام والاحتشام، ولذلك لم تُفهم أحكام الحجاب في التراث الفقهي بمعزل عن بقية الأحكام المرتبطة بالسلوك العام، كغضّ البصر، وتحريم الخلوة المحرمة، وآداب الحديث، والنهي عن التبرج، وضبط حدود التفاعل الاجتماعي. ومن هنا يرى الفقهاء أنّ الحجاب لا يقتصر على مجرد تغطية الجسد أو ارتداء لباس ساتر فحسب، بل يشمل أيضًا أسلوب الحضور الاجتماعي وطريقة الكلام والحركة والتعامل، لأن مفهوم الاحتشام في الإسلام يرتبط بالسلوك بقدر ارتباطه بالمظهر الخارجي. وقد استدل العلماء على ذلك بقوله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**﴾ سورة الأحزاب: 32، إذ تُظهر الآية أنّ الخطاب القرآني لم يقتصر على بيان شكل اللباس، بل امتد ليشمل نبرة الكلام وطبيعة التخاطب وحدود التفاعل الاجتماعي، بما يحقق الاحترام المتبادل ويمنع الإثارة أو الاستغلال، وبذلك يصبح الحجاب في الرؤية الفقهية جزءًا من مشروع أخلاقي متكامل يربط بين الظاهر والباطن، وبين السلوك الشخصي والاستقرار الاجتماعي.

رابعًا: البعد الأخلاقي للحجاب في القراءة الصوفية والعرفانية

تنظر القراءة الصوفية والعرفانية إلى حجاب المرأة من زاوية أخلاقية وإنسانية عميقة تتجاوز الفهم الشكلي المرتبط باللباس وحده، إذ ترى أن الحجاب في جوهره ليس مجرد قطعة قماش تُوضع على الجسد، بل هو تعبير عن رؤية معينة للإنسان وقيمته ومكانته في الحياة، فالفكر العرفاني ينطلق من فكرة أساسية مفادها أن الإنسان كلما ارتقى روحيًا وأخلاقيًا، ابتعد عن تحويل ذاته إلى مادة للعرض والاستهلاك البصري، لأن قيمة الإنسان الحقيقية - في هذا التصور - لا تُختزل في الجسد أو المظهر الخارجي، بل في صفاء النفس ووعي العقل

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

ونقاء الروح. ومن هنا يُفهم الحجاب بوصفه نوعًا من الحماية الأخلاقية للذات، لا من المجتمع فقط، بل أحيانًا من هيمنة النزعة الاستعراضية التي تجعل الإنسان أسيرًا لنظرات الآخرين وأحكامهم.

وفي الأدبيات الصوفية، يرتبط الحياء ارتباطًا وثيقًا بمفهوم النبل الداخلي، لذلك لم يكن الحجاب عند المتصوفة مجرد التزام فقهي جامد، بل حالة من الانسجام بين الظاهر والباطن، بحيث يعكس المظهر الخارجي حالة من التوازن الروحي والسكينة النفسية. فالمرأة المتحجبة - وفق هذا المنظور - لا تُخفي جسدها لأنها تحتقره أو تخجل منه، وإنما لأنها ترى أن كرامتها الإنسانية أوسع من أن تُختزل في حدود الصورة الجسدية. ولهذا فإن الحجاب في القراءة العرفانية يتحول إلى موقف أخلاقي ضد اختزال المرأة في بعدها الجسدي وضد الثقافة التي تجعل قيمة الإنسان مرتبطة بقدرته على جذب الأنظار أو إثارة الرغبات.

كما يرى بعض العرفاء أن الحجاب يحمل بعدًا تربويًا للنفس، لأنه يُدرّب الإنسان على مقاومة النزعات القائمة على التباهي والاستعراض والسعي المستمر إلى نيل الإعجاب الخارجي. فكلما تعلّق الإنسان بصورة جسده أمام الناس، أصبح أكثر خضوعًا لمقاييس المجتمع وتقلبات الذوق العام، بينما يسعى الحجاب - في بعده الروحي - إلى تحرير المرأة من هذا الارتهان النفسي، بحيث تستمد قيمتها من ذاتها وأخلاقها وفكرها لا من مقدار ما تحققه من حضور بصري في أعين الآخرين. ومن هنا اعتبر بعض المتصوفة أن الحياء ليس انكماشًا أو ضعفًا، بل قوة داخلية تمنح الإنسان قدرة على ضبط رغباته وحفظ توازنه أمام إغراءات الشهرة والظهور.

وتذهب القراءة العرفانية أيضًا إلى أن الحجاب يعبّر عن فلسفة تقوم على إعادة التوازن بين الجسد والروح في عالم طغت فيه الماديات والمظاهر. ففي المجتمعات الحديثة، أصبح الجسد في كثير من الأحيان وسيلة للتسويق والإعلان والاستهلاك، حتى تحولت صورة المرأة في بعض الثقافات إلى أداة جذب تجاري أو معيار للجمال المفروض اجتماعيًا، وهنا يظهر الحجاب - في الرؤية الصوفية - بوصفه اعتراضًا أخلاقيًا على تحويل الإنسان إلى سلعة بصرية. فالحجاب لا يُراد له أن يلغي جمال المرأة أو حضورها، بل أن يعيد تعريف هذا الحضور بطريقة تحفظ إنسانيتها وتمنحها مساحة لتُعرف بعقلها وأخلاقها ومكانتها الفكرية والاجتماعية قبل أي شيء آخر.

كما يؤكد العرفاء أن الحجاب يفقد قيمته إذا انفصل عن الأخلاق الحقيقية، لأن الحجاب في جوهره ليس مجرد مظهر خارجي، بل انعكاس لحالة داخلية من التواضع والاحترام والوعي الإنساني. ولهذا كثيرًا ما انتقد المتصوفة أولئك الذين يحافظون على المظهر الديني بينما تمتلئ سلوكياتهم بالقسوة أو التكبر أو الرياء، معتبرين أن الحجاب الحقيقي يبدأ من تهذيب النفس قبل تهذيب الهيئة. فالقماش وحده لا يصنع إنسانًا صالحًا، كما أن كشف الجسد لا يعني بالضرورة غياب الأخلاق، لكن الرؤية العرفانية ترى أن انسجام الظاهر مع الباطن يمنح الإنسان حالة من الاتزان الروحي والأخلاقي الذي ينعكس على حضوره كله.

ومن هذا المنطلق، يصبح الحجاب في الفكر الصوفي والعرفاني رمزًا للوقار الداخلي أكثر من كونه مجرد التزام اجتماعي، ويغدو تعبيرًا عن فلسفة أخلاقية ترى أن الإنسان يسمو كلما تحرر من عبودية الصورة، واقترب أكثر من جوهره الإنساني والروحي.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

خامسًا: الحجاب في الواقع المعاصر وتحولات معناه الحقيقي

في العصر الحديث، لم يعد الحجاب مجرد قضية دينية أو فقهية تتعلق بستر المرأة وفق الضوابط الشرعية، بل تحوّل إلى ظاهرة اجتماعية وثقافية وإعلامية شديدة التعقيد، تأثرت بالتحولات العالمية وبصعود ثقافة الصورة والاستهلاك والموضة. ومع اتساع تأثير وسائل الإعلام ومنصات التواصل الاجتماعي، بدأ الحجاب يفقد في كثير من الأحيان محتواه الأخلاقي والروحي الأصلي، ليتحوّل تدريجيًا عند بعض الفئات إلى مجرد مظهر شكلي أو رمز اجتماعي منفصل عن فلسفته الحقيقية القائمة على الاحتشام والعفة والوقار. فبدل أن يكون الحجاب وسيلة لتخفيف التركيز على الجسد وتقليل النزعة الاستعراضية، أصبح أحيانًا جزءًا من منظومة الموضة ذاتها، تُستعرض من خلاله الألوان والزينة وأساليب الإظهار التي قد تتنافى مع الغاية التي شُرّع من أجلها.

وقد أسهمت ثقافة "الموضة المحتشمة" الحديثة في إعادة تشكيل مفهوم الحجاب، إذ ظهر نوع من التناقض بين الاسم والمضمون، فبينما يُرفع شعار الاحتشام، تُقدَّم في الواقع أنماط من اللباس الضيق أو الملفت أو المزخرف بصورة مبالغ فيها، بحيث يتحول الحجاب نفسه إلى أداة لجذب الانتباه بدل أن يكون وسيلة لتخفيفه. وأصبح التركيز في بعض الأحيان منصبًا على تنسيق الألوان، وطريقة ربط الحجاب، والعلامات التجارية، وصناعة الصورة الجمالية على وسائل التواصل، أكثر من التركيز على البعد الأخلاقي والشرعي الذي يقوم عليه مفهوم الحجاب في الأصل. وهكذا نشأت حالة من "تفريغ المعنى"، حيث بقي الشكل الخارجي للحجاب حاضرًا، بينما تراجعت كثير من دلالاته المرتبطة بالحياء والبساطة والستر الحقيقي.

كما ساهم الإعلام الحديث وثقافة المؤثرين في تحويل الحجاب لدى بعض الفتيات إلى جزء من صناعة الهوية الرقمية، فأصبح أحيانًا أقرب إلى "إكسسوار اجتماعي" منه إلى التزام أخلاقي أو ديني. ولم تعد بعض صور الحجاب المعاصر تعبّر عن فكرة تقليل التركيز على الجسد، بل ربما أصبحت تعيد إنتاج الاهتمام بالمظهر بصورة أكثر تعقيدًا، من خلال الجمع بين غطاء الرأس والملابس الضيقة أو أساليب التبرج الحديثة، الأمر الذي دفع كثيرًا من الباحثين ورجال الدين إلى الحديث عن وجود فجوة بين "الحجاب الشرعي" و"الحجاب الشكلي". فالحجاب في الرؤية الشرعية ليس مجرد تغطية الشعر، بل منظومة متكاملة تقوم على الستر وعدم إظهار تفاصيل الجسد أو لفت الأنظار بصورة متعمدة، بينما أدت بعض التحولات المعاصرة إلى اختزال الحجاب في غطاء للرأس فقط مع إهمال بقية شروطه ومقاصده.

ومن جهة أخرى، أصبح الحجاب في بعض البيئات خاضعًا لضغوط اجتماعية متناقضة، ففي بعض المجتمعات الغربية تتعرض المرأة المحجبة أحيانًا للتمييز أو التنميط، بينما تواجه المرأة في بعض المجتمعات الإسلامية ضغطًا من نوع آخر يتمثل في تحويل الحجاب إلى معيار سطحي للحكم على التدين والأخلاق، بحيث يُختزل الدين أحيانًا في المظهر الخارجي وحده. وهذا ما خلق حالة من الاضطراب في فهم الحجاب، بين من يرفضه بوصفه قيدًا اجتماعيًا، ومن يتمسك بشكله دون روحه، ومن يحاول إعادة فهمه ضمن سياق أخلاقي وإنساني متوازن.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

إن أخطر ما واجهه الحجاب في العصر الحديث ليس الهجوم الخارجي عليه فحسب، بل تفريغه الداخلي من معناه الحقيقي، حين تحوّل في بعض الأحيان من قيمة أخلاقية تدعو إلى الحياء والوقار والاتزان إلى مجرد مظهر قابل للتكييف مع ثقافة الاستعراض والاستهلاك. فالحجاب الذي شُرّع ليكون ساترًا للجسد ومخففًا للنظرة المادية إلى المرأة، أصبح أحيانًا جزءًا من السوق الاستهلاكية التي تعيد إنتاج الجسد بصورة مختلفة تحت عنوان "الأناقة المحتشمة". ولذلك فإن التحدي الحقيقي اليوم لا يكمن فقط في الدفاع عن الحجاب كشعار، بل في استعادة فكرته الأخلاقية والإنسانية العميقة، وإعادة ربطه بمعاني الحياء والبساطة والكرامة التي جاء بها الخطاب القرآني والفقهي منذ البداية.

الاستنتاجات

1. إن الحجاب ظاهرة أقدم من الإسلام، فقد عرفته حضارات ومجتمعات عديدة بصور وأهداف مختلفة، إلا أن الإسلام أعاد صياغته ضمن إطار أخلاقي وتشريعي يربطه بالعفة والاحتشام وصيانة الكرامة الإنسانية.

2. تناول القرآن الكريم الحجاب بوصفه حكمًا مباشرًا يتعلق بستر الزينة وتنظيم الهيئة العامة للمرأة، من خلال آيات واضحة تناولت الخمار والجلباب والنهي عن التبرج وإظهار المفاتن.

3. أكدت الرؤية الفقهية الإسلامية أن الحجاب ليس مجرد غطاء للرأس، بل منظومة متكاملة لها شروط وضوابط تتعلق بستر الجسد وعدم إظهار الزينة أو تفاصيل البدن بصورة تتنافى مع مقصود الاحتشام.

4. يرتبط الحجاب في الفقه الإسلامي بمنظومة أخلاقية أوسع تشمل غضّ البصر وآداب الكلام والسلوك الاجتماعي، مما يدل على أن الحجاب ليس مظهرًا منفصلًا عن بقية القيم الأخلاقية في الإسلام.

5. قدّمت القراءة الصوفية والعرفانية للحجاب فهمًا أخلاقيًا وروحيًا عميقًا، إذ رأت فيه تعبيرًا عن الحياء الداخلي والاتزان النفسي والتحرر من اختزال الإنسان في بعده الجسدي أو المظهري.

6. شهد الحجاب في العصر الحديث تحولات كبيرة بفعل الإعلام والعولمة وثقافة الاستهلاك، الأمر الذي أدى في بعض الأحيان إلى تفريغه من مضمونه الأخلاقي وتحويله إلى مظهر شكلي أو عنصر من عناصر الموضة والاستعراض.

7. أدى انتشار ما يُعرف بـ"الموضة المحتشمة" إلى ظهور أنماط من اللباس تحمل اسم الحجاب لكنها قد تتعارض مع مقاصده الشرعية من حيث الضيق أو الزينة أو لفت الانتباه، مما خلق فجوة بين الحجاب الشرعي والحجاب الشكلي.

8. إن الإشكالية المعاصرة للحجاب لا تكمن في وجوده أو غيابه فقط، بل في فهم فلسفته الحقيقية، إذ إن اختزال الحجاب في المظهر الخارجي وحده يؤدي إلى فقدان أبعاده الأخلاقية والإنسانية.

9. يبقى الحجاب - في جوهره - مرتبطًا بفكرة صيانة الكرامة الإنسانية وتحقيق التوازن بين حرية الإنسان ومسؤوليته الأخلاقية داخل المجتمع، بعيدًا عن الإفراط في التبرج أو الإفراط في اختزال الدين بالمظاهر الشكلية.

10. إن إعادة قراءة الحجاب بصورة متوازنة تتطلب الجمع بين البعد الشرعي والأخلاقي والإنساني، وفهمه بوصفه قيمة تتعلق بالوعي والسلوك والهوية، لا مجرد لباس خارجي منفصل عن جوهر الإنسان وأخلاقه.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

خاتمة

إن الحجاب ليس قضية بسيطة أو أحادية البعد، بل هو ظاهرة مركّبة تتداخل فيها الأبعاد الدينية والتاريخية والفقهية والأخلاقية والاجتماعية، وتنعكس في كل مرحلة من مراحل تطورها دلالات مختلفة مرتبطة بالإنسان والمجتمع والثقافة. فقد عرفته الحضارات القديمة بأشكال متعددة ارتبطت أحيانًا بالطبقة أو العرف الاجتماعي، ثم جاء القرآن الكريم ليعيد صياغته ضمن إطار تشريعي واضح يربط الحجاب بمفاهيم الستر والعفة وضبط الزينة وصيانة الكرامة الإنسانية. وبعد ذلك جاء الفقه الإسلامي ليحدّد أحكامه وضوابطه التفصيلية بوصفه التزامًا شرعيًا له شروطه وحدوده، في حين قدّمته الرؤية الصوفية والعرفانية كقيمة أخلاقية وروحية تعكس الحياء الداخلي وتزكية النفس قبل أن تكون مجرد مظهر خارجي.

وفي زمن التحولات المعاصرة، لم يعد النقاش حول الحجاب مقتصرًا على كونه لباسًا فحسب، بل أصبح مرتبطًا بإشكاليات أوسع تتعلق بالهوية والحرية والثقافة والجسد وصورة المرأة في المجتمع، إضافة إلى تأثيرات الإعلام وثقافة الاستهلاك التي أعادت تشكيل بعض مفاهيمه وأفرغت جزءًا من محتواه الأخلاقي عند بعض التطبيقات الحديثة. وهكذا بات الحجاب يتأرجح بين معناه الشرعي الأصلي وبين صور اجتماعية وثقافية متباينة قد تبتعد أحيانًا عن مقاصده الأولى.

ومن هنا فإن القراءة المتوازنة للحجاب تقتضي تجاوز الاختزال، فلا يُختزل في شكل خارجي أو يُفرّغ من أبعاده الأخلاقية والروحية، كما لا يُفهم بمعزل عن سياقه التشريعي والاجتماعي، بل ينبغي أن يُقرأ ضمن رؤية شاملة ترى الإنسان كقيمة أخلاقية وإنسانية متكاملة قبل أن تنظر إليه كمظهر أو هيئة، وبذلك يستعيد الحجاب معناه العميق بوصفه تعبيرًا عن الوعي والحياء والكرامة، لا مجرد رمز شكلي منفصل عن جوهره.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

المصادر

1. ابن رشد، محمد بن أحمد (1995). بداية المجتهد ونهاية المقتصد. بيروت: دار الحديث.
2. ابن عابدين، محمد أمين (2000). رد المحتار على الدر المختار. بيروت: دار الفكر.
3. ابن عربي، محيي الدين (1985). الفتوحات المكية. بيروت: دار صادر.
4. ابن قدامة، موفق الدين (1997). المغني. بيروت: دار الفكر.
5. ابن كثير، إسماعيل بن عمر (1999). تفسير القرآن العظيم. بيروت: دار طيبة.
6. السيستاني، علي (2009). منهاج الصالحين. النجف الأشرف: مكتب السيد السيستاني.
7. الطباطبائي، محمد حسين (1997). الميزان في تفسير القرآن. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
8. الطبري، محمد بن جرير (2000). جامع البيان عن تأويل آي القرآن. بيروت: دار الفكر.
9. عبد الله الغذامي (2006). المرأة واللغة. بيروت: المركز الثقافي العربي.
10. الغزالي، أبو حامد (2005). إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة.
11. فاطمة المرنيسي (2002). الحجاب والنخبة الذكورية. بيروت: المركز الثقافي العربي.
12. القرطبي، محمد بن أحمد (2006). الجامع لأحكام القرآن. القاهرة: دار الكتب المصرية.
13. القشيري، عبد الكريم (2001). الرسالة القشيرية. بيروت: دار الكتب العلمية.
14. ليلى أحمد (1993). المرأة والجنس في الإسلام. القاهرة: دار سطور.
15. مسلم بن الحجاج (د.ت). صحيح مسلم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
16. نصر حامد أبو زيد(1990). الخطاب والتأويل. بيروت: المركز الثقافي العربي.
17. النووي، يحيى بن شرف (1994). شرح صحيح مسلم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

تأسس مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية في بغداد بموجب شهادة التسجيل الصادرة عن الأمانة العامة لمجلس الوزراء -دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة (1J775330) بتاريخ ٢٠١٢/٤/٢٦، وهو مركز علمي بحثي يهتم بإجراء الاستطلاعات والدراسات الميدانية فضلا عن إعداد الأوراق البحثية والمقالات حول قضايا الحياة المجتمعية للأسرة والمواطن، والدولة بمؤسساتها المختلفة.

- لا يجوز نشر أي من إصدارات المركز ونتاجاته العلمية الا بموافقة خطية صريحة ويمكن الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملا.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي والدراسات المجتمعية

للتواصل

00964- 7710122232

Alfaidcenter2011@gmail.com

www.al-faidh.com

العراق - بغداد - الكرادة